صور من شعر الصداقة والصديق

في القرن الثالث الهجري

إعداد

الدكتور

فتحي علي علي عبده

شعبة النشر والخدمات المعلوماتية

إصدار ابريل لسنة ٢٠٢١

المقدمة

يحاول هذا البحث إلقاء الضوء على كيفية تناول الشعر في القرن الثالث الهجري لجانب مهم من جوانب العلاقات الإنسانية ، وهو صفات الصديق وموجبات الصداقة ، ويرجع اختيار هذا القرن مجالا للبحث إلى كثرة الرسائل النثرية التي تناولت هذا الجانب ، وإلى قدرة الكتاب على تنمية رسائل الإخوة والإخاء التي كتبها كتَّاب القرن الثاني الهجري ، مما رسم لنا صورة من صور الحديث عن صفات الصديق ودستور الصداقة الحقة وما يكون من علاقات إظهار المحبة والتلطف في المحافظة على الصديق .

وقد استطاع الكتاب في القرن الثالث الهجري التعبير عن هذه الصور في أشعارهم ، مما أثرى الشعر العربي وجعل لهذه الموضوعات النثرية مكانا إلى جوار الموضوعات الشعرية التقليدية كالمدح والرثاء والهجاء والغزل ، وكانوا حريصين في أشعارهم على التعبير عن الحس الحضاري الذي كان سمة الحضارة العباسية ، كما كانوا حريصين على أن تكون لغتهم التي عبروا بها عن هذه الموضوعات لغة سهلة ، ولكنها في الوقت نفسه لغة موحية معبرة عن انفعال صادق وحس جمالي راق .

وقد استعنا في هذا البحث بعدة مصادر ومراجع أثبتناها في نهايته ، وقمنا بتحقيق نسبة الأشعار المستخدمة من مصادر شتى .

والله أسأل أن يوفق ويعين

صور من شعر الصداقة والصديق
في القرن الثالث الهجري
(١) ماهية الصداقة الحقّة

تحتل الصداقة عند الكتاب مكانة تقترب من مكانة الحبيب ؛ ولذا حرصوا على تخيّر الأصدقاء ، وبيان ماهية الصداقة الحقّة ، بما ينم عن نظرة عميقة في فهم الناس والحياة كما اتضحت لهم من خلال تجاربهم الذاتية . ومما ينطق بذلك ما رواه ياقوت عن ميمون بن هارون عن أبيه ، قال : « قلت لإبراهيم بن العباس إن فلانًا يحب أن يكون لك وليًا ، فقال لي : أنا والله أحب أن تكون الناس جميعًا إخواني ، ولكني لا أخذ منهم إلا من أُطيق قضاء حقه وإلا استحالوا أعداء ، وما مثلهم إلا كمثل النار ، قليلها مقنع ، وكثيرها محرق »[١].

ولقد انعكس هذا الفهم لطبيعة الصداقة على صفحة أشعار الكتاب ، فيحدثنا إبراهيم بن العباس عن مكانة الصديق من نفسه فيقول[٢] :

أميل مع الذِّمام على ابن أمي وأقضي للصديق على الشقيق
وإما تُلفني حرًا مطاعًا فإنك واجدي عبدَ الصديق

ويقارن أحمد بن إسماعيل نطَّاحة الكاتب بين صدود الحبيب وصدود الخليل فيقول[٣] :

صدود الحبيب دعاء الغليل وأغلظ منه صدود الخليل

---

(١) معجم الأدباء : ١٨٨/١.

(٢) الديوان ق : ٩٥.

(٣) أدب الكتاب : ٢٣٧ ، وقد وردت باختلاف يسير في الوافي بالوفيات : ٢٤٨/٦.

صـــــددتَ فأشـــمتَ بـــي حاســـدًا عليـــك وحققـــت قـــول العـــذول

ويدعو ابن بسام إلى اختيار الصديق ، والتمسك بالأصدقاء ذوي العقل الراجح والرأي الثاقب ، وتجنب صداقة الأحمق ، فيقول(٤) :

لا تيأســـن مـــن اللبيـــب وإن جفـــا واقطـــع حبالـــك مـــن حبـــال الأحمـــق
فعـــداوةٌ مـــن عاقـــل متجمّـــل أولـــى وأســـلمُ مـــن صـــداقة أخـــرق

وتبرز من خلال نظرتهم لمكانة الصديق والصداقة **ثلاث سمات جوهرية** يمكن أن تشكل ما يشبه دستور الصداقة الحقة .

وتتضح أولى هذه السمات في الوضوح وعدم التلون .

إذ يرى الكتَّاب أن أشد ما يفكك عرى الصداقة ألا يكون الصديق واضحًا في علاقته مع صديقه ، كأن يكون منافقًا ، أو متلونًا بتلون الأيام في الشدة والرخاء ، ومما يصور ذلك دعوة إبراهيم بن العباس إلى الوضوح والتخلي عن النفاق. يقول(٥) :

خَـــــلِّ النفـــــاق لأهلـــــه وعليـــــك فـــــالتمس الطريقـــــا
واذهـــــب بنفســـــك أن تُـــــرى إلا عـــــــــدوًا أو صـــــــــديقا

ويعرض صورة للصديق المتلون فيقول(٦) :

أخٌ بينـــــي وبـــــين الدهـــــ ـــــر صـــــاحَبَ أَيَّنـــــا غلبـــــا
صـــــديقي مـــــا اســـــتقام فـــــإن نبـــــا دهـــــرٌ علـــــيَّ نبـــــا

---

(٤) غرر الخصائص : ١١٧.
(٥) الديوان ق : ١٢٢.
(٦) المصدر نفسه ق : ١٠١.

وثبـــتُ علـــى الزمـــان بـــه فعـــاد بـــه وقـــد وثبـــا
ولـــو عـــاد الزمـــان لنـــا لعـــاد بـــه أخـــا حـــدبا

ويعكس إبراهيم بن المدبر صورة ذلك الصديق المتلون الذي تخلى عنه وقت الشدة في قوله[٧] :

وصـــديق تـــراه حلـــوًا أنيقًـــا مؤنسًـــا ملطفًـــا حفيًـــا شـــفيقًا
ثـــم لمـــا رمـــاني الـــدهرُ بالغلـــ ـــظة منـــه صـــار البعيـــدَ الســـحيقا

أما السمة الثانية التي تشكل دستور الصداقة الحقّة ، فتتمثل في ضرورة المشاركة الوجدانية للأصدقاء.

فكثيرًا ما يتعرض الإنسان للمحن أو يقع فريسة للأمراض ، فيكون في حاجة إلى من يخفف عنه من حدة هذه الأزمات ، ولاشك أن الصديق الحقّ عليه دور كبير في هذا.

ومما يصور ذلك ما كتب به ابن الزيات إلى أحد أصدقائه ، وقد علم بمرضه متمنيًا أن يهبه سلامة نفسه ، يقول[٨] :

أَعْـــزِزْ علـــيَّ بـــأن أراك علـــيلا أو أن يكـــون بـــك الســـقام نـــزيلا
ووددت أنـــي مالـــك لســـلامتي فأعيركهـــا بكـــرة وأصـــيلا
فتكـــون تســـعى ســـالمًا بســـلامتي وأكـــون ومـــا قـــد عـــراك بـــديلا
وأنـــا أخ لـــك أشـــتكي مـــا تشـــتكي وكـــذا الخليـــل إذا أجـــلّ خلـــيلا

---

(٧) إعتاب الكتاب : ١٦٢.

(٨) الديوان ص : ٦٠ ، وقد وردت هذه المقطوعة بديوان خالد الكاتب ق : ٣٦٦ باختلاف يسير ، كما ورد البيتان الأول والرابع باختلاف يسير في المنتحل للثعالبي ص ٢٧٩ منسوبين إلى أحمد بن يوسف الكاتب.

وتُعَدّ محنة السجن من أشد المحن التي تعرّض لها الكتاب ، وفي المحن تظهر معادن الرجال ، وتوجب مشاركة الإخوان ، ولذا يكتب الأصدقاء والإخوان إلى إخوانهم المحبوسين يدعونهم إلى الصبر على هذا الخطب الجسيم ، مذكرين بفرج الله القادر على حل عقد المكاره ، ومما يمثل ذلك ما كتب به الحسن بن وهب إلى أخيه سليمان وهو محبوس زمن الواثق[٩] :

الـــدمع مـــن عينـــي أخيـــك غزيـــر ... فـــــي ليلـــــه ونهـــــاره مخـــــدور
بـــأبي وأمـــــي خطـــوك المقصـــور ... ومقيـــــــد ومصـــــــفد وأســـــــير
مـــا كنـــت أحســـبني أعـــيش ومهجتـــي ... تحـــت الخطـــوب تـــدور كيـــف تـــدور
عثـــراتُ مثلـــك فـــي الزمـــان كثيـــرة ... ولهـــــن بَعْـــــدُ مثابـــــة وحبـــــور
إن تمشـــي فـــي حلـــق الحديـــد فحشـــوها ... منـــك الســـماحة والنـــدى والخيـــر
والفصـــل للشـــبهات رأيـــك ثاقـــب ... فيهـــــا يُضـــــيء ســـــداده وينيـــــر
فاصـــــبر ورب البيـــــت لا يقتادهـــــا ... أحـــــد ســـــواك وحظـــــك الموفـــــور
مـــــاذا بقلـــــب أخيـــــك مـــــذْ فارقتـــــه ... ليكـــــاد مـــــن شـــــوق إليـــــك يطيـــــر
فكأنمـــــا هـــــو قرحـــــة مقرونـــــة ... منهـــــا البلابـــــل والهمـــــوم تثـــــور
والله مرجـــــــوٌّ لكربتنـــــــا معًـــــــا ... وعلـــى الـــذي نرجـــوه منـــه[١٠] قـــدير

وكتب أبو علي البصير إلى أحمد بن إسرائيل الكاتب ، وأبي نوح عيسى بن إبراهيم يصف حالته بعد أن سُجِنا ، ويذكر أنه لا يزال على عهدهما. يقول[١١] :

---

(٩) الفرج بعد الشدة : ١/١٥٦.

(١٠) في الفرج بعد الشدة : منك.

(١١) الوافي بالوفيات : ٦/٢٤٤.

مــن كــان حبســكما أنســاه عهــدكما فلســت عهــدكما مــا عشــت بالناســي
وكيــف يســلوكما مــن لــم يجــد عوضــا مســتخلفًا عنكمــا مــن ســائر النــاس
إذا تـــذكرت أيـــامي التـــي ســـلفت قطعــت فــي إثرهــا نفْســي بأنفاســي
أيـــام آوي إلـــى طـــود ومنعتـــه أركانــه بكمــا عــالي الــذرى راســي
أشــكو إلــى الله لــيلاً بــت أســهره كـــأن أنجمـــه شُـــدت بـــأمراس
وقرحــةٌ فــي ســواد القلــب لــيس لهــا إلا تجـــدد تلـــك الحـــال مـــن آس

أما السمة الثالثة التي تشكل دستور الصداقة الحقّة عند الكاتب فهي الصبر على أذى الصديق ، والعفو عنه وتلمس الأعذار له.

ومن ذلك قول ابن الزيات يبين أن من صفات المودة المنيعة الأركان – العفو عن إساءة الصديق وتلمس العذر له[١٢] :

إن المـــــودة لا تكـــــون مـــــودة حتـــى تكـــون منيعـــة الأركـــان
حتـــى تكـــون إذا اســـأتَ كأنمـــا تابعـــتَ عنـــد أخيـــك بالإحســـان
ثقـــــةً وإدلالا بـــــأن ضـــــميره لـــك قـــايمٌ بالعـــذر والبرهـــان

ويذكر محمد بن أبان الكاتب حجة عقلية للبرهان على ضرورة العفو عن زلّات الصديق فيقول[١٣] :

---

(١٢) الديوان ص ٦٩.

(١٣) معجم الشعراء : ٣٧٩ ، وقد وردت باختلاف يسير في الوافي بالوفيات : ٣٣٥/١. ومحمد بن أبان هو أبو جعفر محمد بن أبان الكاتب من أهل ديرقني ، أديب حسن البلاغة ، كان يكتب لنصر بن منصور بن بسام ثم اتهم بالزندقة فحبس في = سجن بغداد. وكان يكثر في شعره من الافتخار

إذا أنا لم أصبر على الذّنب من أخٍ وكنتُ أجاريه فأين التفاضل
إذا ما دهاني مفصل فقطعته بقيت ومالي للنهوض مفاصل
ولكن أداويه فإن صحّ سرّني وإن هو أَعْيَا كان منه تحامل

ويرى محمد بن الفضل الجَرْجَرائي الكاتب أنه يُعد شريكًا في الذنب إذا لم يغفر ذنب صاحبه ، فالحسنات يذهبن السيئات ، والمعروف يزيل قبح المنكر. يقول[١٤] :

خِلٌّ أتى ذنبًا إليَّ وإنني لشريكه في الذنب إن لم أغفر
فمحا بإحسانٍ إساءة فعله وأزال بالمعروف قبح المنكر

ويرى سعيد بن حُمَيْد أن المرء لا يعدم أن يجد صفة طيبة في صديقه ، فإذا عاب صفة قبيحة تذكر صفة طيبة[١٥] :

أخٌ لي كأيام الحياة إخاؤه تلون ألوانًا كثيرًا خطوبها
إذا عبتُ عنه خلة فهجوتُها تذكرتُ منه خلة لا أعيبها

ويرسم خطة لمعاملة الصديق إذا أخطأ ، وكثرت إساءاته ، وتبرز أولى الخطوات في تركه في حال وسط ليست بالهجر الكامل ، فربما أشعرته الأيام بتقصيره في حق

بالعجم ، وله قصيدة طويلة في وصف سُرَّ من رأى. راجع معجم الشعراء : ٣٧٩. الوافي بالوفيات : ٣٣٥/١.

(١٤) معجم الشعراء : ٣٧٨ والوافي بالوفيات : ٣٢٤/٤ ، ومحمد بن الفضل هو أبو جعفر محمد بن الفضل الجرجرائي الكاتب كان يكتب للفضل بن مروان ثم وزر للمتوكل ، وهو شيخ ظريف حسن الأدب عالم بالغناء توفي سنة ٢٥٠هـ وقد نيف على الثمانين. راجع معجم الشعراء : ٣٧٨ الوافي بالوفيات : ٣٢٤/٤ إعتاب الكتاب : ١٥٢/ ١٥٣ ، الأعلام : ٢٢١/٧.

(١٥) أشعاره ق : ٩.

الصداقة ، فإن لم تُجدِ هذه الخطوة ، كان العتاب ، فربما وصل العتاب حبل الود ، وكشف حقيقة الأمر ، فإن لم يجد أذنًا مصغية ، وقلبًا سميعًا ، فلا سبيل إلا القطيعة والإعراض ، فربما يُرجي نفعها في إعادة الودّ القديم ، فإذا رجع إلى قديم وُدّه وسالف صداقته عفا عنه وصفح عن زلاته. يقول[١٦] :

إذا كثرتْ ذنوبٌ من خليل ... فقفه بين وصل واجتناب

وأَنْظره فللأيام حكم ... بذلك كل ماضي العزم نابي

وعاتبه فكم أبدى عتاب ... جليةَ مشكل بعد ارتياب

ورجِّ النفع في الإعراض عنه ... إذا أخفقت من نفع العتاب

وراجعه بعفوك حين يثني ... عِنانا للرجوع أو الإياب

فإن العفو عن ذي الحزم أولى ... إذا قدرت يداك على العقاب

فإنك واجدٌ للحي ذنبًا ... وتعدم ذنب من تحت التراب

ولكن إذا حدثت القطيعة وانصرم حبل الوُدّ ، فيجب أن يكون الإعراض بالمعروف والصدود الجميل : يقول[١٧] :

وكنتُ إذا ما صاحبٌ مَلَّ صحبتي ... صددت وبعض الصدِّ في الحب أمثل

وقلتُ جميلاً حين أصرم حبله ... وإن كان لم يأت التي هي أجمل

ويرى ابن بسام أن العتاب والحرص على الوُدّ ، ورد الواشين ، وتلمس الأعذار للصديق من سبل الحفاظ على عرى الصداقة قوية ، فيقول[١٨] :

---

(١٦) الصداقة والصديق : ١٤٥ ، ولم ترد بأشعاره المجموعة.

(١٧) المصدر نفسه : ١٤٧ ، ولم ترد بأشعاره المجموعة.

(١٨) بهجة المجالس : ٧٢٧/١.

عاتـــــب أخـــــاك إذا هفـــــا واعطـــــف بـــــودك واســـــتعده
وإذا أتـــــــــاك بغيبـــــــــة واشٍ فقـــــل لـــــم يعتمـــــده
مـــــن نـــــاقش الإخـــــوان لـــــم يُبْـــــدِ العتـــــاب ولـــــم يعـــــده

ومما تقدم يمكن القول بأن الصداقة قد احتلت مكانها الأسمى عند الكتاب ، فتخيروا الأصدقاء ، ورسموا دستورًا يصور حقوق الصداقة وواجباتها ، ولعل في استخدامهم للصيغة التعليمية في كثير من شعر الصداقة ما يشي بحرصهم على توصيل هذه التوجيهات التي تنبع من تجاربهم الذاتية إلى كل إنسان يحترم الصداقة ويقدس مكانتها.

(٢) العتاب والاعتذار

اتخذ الكتاب من العتاب والاعتذار وسيلتين للحفاظ على آصرة الوُدّ والأخوة ، وجعلوهما من السمات البارزة في دستور الصداقة الحقّة. وتكثر الأسباب الداعية إلى العتاب وما يتبعه من الاعتذار؛ فيسرع الكاتب إلى مكاتبة صديقه بدخيلة نفسه ، إيمانًا منه بحق الصداقة عليه.

وتتحدد معظم معالم العتاب في العلاقات الإنسانية بين الكتاب ، فقد يمرض أحد الأصدقاء ، ولا يسارع صديقه لعيادته ، والوقوف على أخباره ، فيحس ببوادر الجفاء مما يدفعه إلى الكتابة إلى صديقه ، الذي يسرع في الغالب بالرد على رسالته .

ومن ذلك ما كتبه الحسن بن وهب إلى صديقه ابن الزيات ، وكان الحسن قد مرض فلم يَعُدْهُ ابن الزيات ولا تعرّف خبره ، فكتب الحسن إليه هذا العتاب الرقيق

يستوضح فيه أسباب تلك الجفوة التي تركته عرضة للظنون ، ويَعِدُهُ بالزيارة بعد أن تماثل للشفاء ، يقول[١٩] :

أيهـــذا الـــوزير أيـــدك اللّـــــــــه وأبـــقاك لـــي بقـــاءً طـــويلا
أجمـــيلاً تـــراه يـــا أكـــرم النـــا س لكيمـــا أراه أيضًـــا جمـــيلا
إننـــي قـــد أقمـــت عشـــرًا علـــيلا مـــا تـــرى مرســـلاً إلـــي رســـولا
إن يكـن موجـب التعمـد فـي الصحـ (م) ـــة منًّـــا علـــي منـــك طـــويلا
فهـــو أولـــى يـــا ســـيد النـــاس بـــرًا وافتقـــادًا لمـــن يكـــون علـــيلا
فلمـــاذا تركتنـــي عرضـــة الظـــن مـــن الحاســـدين جـــيلاً فجـــيلا
أَ لِـذنب ؟ فمـا علمـت سـوى الشكـ ـــر قرينًـــا لنيتـــي ودخـــيلا
أم مـــلال ؟ فمـــا علمتـــك للصـــا حـــب مثلـــي علـــى الزمـــان ملـــولا
قـــد أتـــى الله بالشـــفاء فمـــا أعـــ ـــرف عمـــا أنكـــرتُ إلا قلـــيلا
وأكلـــتُ الـــدُّراج وهـــو غـــذاء أفلـــتْ علتـــي عليـــه أُفـــولا
بعـد مـا كنـت قـد حملـت مـن العلـ (م) ـــة عبئًـــا علـــى الطبـــاع ثقـــيلا
ولعلـــي قَـــدِمْتُ قبلـــك آتيـــ ـــك غـــدا إن وجـــدت فيـــه ســـبيلا

فيجيبه ابن الزيات معتذرًا طالبًا الصفح والعفو معترفًا بتقصيره ، ذاكرًا أنه مهما تعلل بالأسباب فإنها لا تفي بالاعتذار. يقول من البحر نفسه والقافية نفسها[٢٠] :

دفـــع الله عنـــك نائبـــة الدّهـــ ـــر وحاشـــاك أن تكـــون علـــيلا

---

(١٩) الأغاني : ٩١٨٧/٢٧ ، ووردت الأبيات الخمسة الأولى في شرح مقامات الحريري : ٢٦٢/١.

(٢٠) الأغاني : ٩١٨٨/٢٧ . ووردت الأبيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٨ ، ٩ بشرح مقامات الحريري : ٢٦٢/١. والأبيات ١، ٢ ، ٤ ، ٥ بالزهرة : ١٤٥/١ ببعض الاختلاف ، ولم ترد بالديوان.

أُشْـــهد اللهَ مـــا علمـــتُ ومـــاذا ك مـــن العـــذر جـــائزًا مقبـــولا
ولعمـــري أن لـــو علمـــتُ فـــلا زمْـــــــتك حـــولاً لكـــان عنـــدي قلـــيلا
إننـــي أرتجـــي وإن لـــم يكـــن مـــا كـــان ممـــا نقمـــتَ إلا جلـــيلا
أن أكـــون الـــذي أَضـــمر الإخـــ ـــلاص لـــم يلـــتمس عليـــه كفـــيلا
ثـــم لا يبـــذل المـــودة حتـــى يجعـــل الجهـــد دونهـــا مبـــذولا
فـــإذا قـــال كـــان مـــا قـــال إذ كـــا ن بعيـــدًا مـــن طبعـــه أن يقـــولا
فـــاجعلن لـــي إلـــى التعلـــق بالعـــذ ر ســـبيلاً إن لـــم أجـــد لـــي ســـبيلا
فقـــديمًا مـــا جـــاد بالصـــفح والعفـــــــو ومـــا ســـامح مـــع الخليـــل خلـــيلا

وقد يفتقد الكاتب صديقه فيبادر بالكتابة إليه معاتبًا على غيابه عنه وقلة زيارته له ، ذاكرًا أيامه الخوالي التي سعدا فيها باللقاء ، مبينًا حاله بعد هذه الجفوة الطارئة. ومن ذلك ما كتب به أحمد بن المدبِّر إلى صديقه أحمد بن إسماعيل بن عمَّار الكاتب[٢١]:

لِـــــمَ مللـــــت أســـــعدك اللـــــــه ومـــــا هـــــذا الجفـــــاء ؟
كـــــان فـــــي قربـــــك أنـــــس وســـــــــرور وبهـــــــــاء
ولُبانـــــــــات تُقَضَّـــــــى وشـــــــــجون وشـــــــفاء
فـــــإذا مـــــا غبـــــتَ عنـــــا فعلـــــــى الـــــــدنيا العفـــــاء

ويبادر أحمد بن إسماعيل بالرد على هذا العتاب مبينًا فضل صديقه وحقه الذي لا يوفيه أي شكر ، ذاكراً أنه سيسارع بقضاء حقوق الصداقة ، يقول من البحر نفسه والقافية نفسها[٢٢] :

---

(٢١) الوافي بالوفيات : ٦/٢٥٠.

(٢٢) المصدر نفسه : ٦/٢٥١.

أنـــــا للســـــيد ذي الطـــــو ل مـــــن الشـــــر الفـــــداء
لـــــيس للرقعـــــة للحـــــق (م) إذا جـــــــــــــــلَّ أداء
وجـــــوابي عنـــــه شـــــكرٌ واعتقـــــــــاد ودعـــــــــاء
وسترضـــــــــيك حقـــــــوقي أبـــــــدًا فيمـــــــا تشـــــــاء

ويعاتب محمد بن عَروس الكاتب صديقًا له أعرض عنه دون أن يدرك لجفائه سببًا ، فيذكر صفو أيامه الخالية معه ، وسروره بلقائه ، وغمه وحزنه لفراقه ومغيبه ، ثم يبحث عن سبب ذلك الجفاء هل هو الملل ؟ أم الظن ؟ أم العتب ؟ أم أنه اقترف ذنبًا في حقه لا يعلمه ؟ يقول[٢٣] :

يـــا فتـــى كانـــت بـــه دنـــ ـــــياي تصـــــفو وتطيـــــب
ولقـــد كانـــتْ تضـــيق الـــ أرض بـــي حـــين تغيـــب
مـــا الـــذي رابـــك والأيـــ (م) ـــــام مـــا زالـــت تُريـــب
فـــيم إعراضـــك عنـــي أيهـــا الحـــر اللبيـــب
أمـــلالاً ؟ فهـــو مـــا ليـــ ـــــس يداويـــه الطبيـــب
أم لظـــن ؟ فـــامتحن فالظـــ (م) ـــــن يُخطـــي ويصـــيب
أم لعتـــب ؟ فعتـــاب الـــ ـــــحر يُجـــدي ويثيـــب

(٢٣) الصداقة والصديق : ٢٢٥/ ٢٢٦ ، ومحمد بن عروس هو محمد بن محمد بن عروس الشيرازي الكاتب الشاعر، تزيل سامرًا. وذكر ابن المعتز أن شعره كله جيد ، وأنه كان شاعر زمانه. ويذكر ابن النديم أن له من الشعر ثلاثين ورقة. توفي سنة ٢٨٠هـ. راجع في أخباره : طبقات الشعراء لابن المعتز : ٤١٨ ، الفهرست: ٢٣٨، معجم الشعراء : ٣٨٩ ، فوات الوفيات : ٣١٩/٢ ، الوافي بالوفيات : ١٢٨/١.

أم لـــــــذنب ؟ فلـــــــك اللـــــــــــه بـــــــأني ســـــــأتوب

وقد يكون الحجاب سببًا من أسباب العتاب ، فقد يحول الحاجب بين الكاتب وصديقه ، فلا يتمكن من لقائه بعدما كانا لا يفترقان فيحس منه جفوة بعد ما كان من أنس بينهما ؛ فيسارع بالكتابة إليه واصفًا ما شعر به من التحول في المعاملة ، وسوء صنيع الحجاب. ومن ذلك قول أبي علي البصير ، وكان قد حجب بباب أحد أصدقائه[٢٤]:

قـــد أتينـــاك للســـلام فصادفـــنا علـى غيـر مـا عهـدنا الغلامـا
وســـألناه عنـــك فاعتـــل بـــالنو م ومـــا كـــان مُنكـــرا أن تنامـــا
غيـــر أن الجـــواب كـــان جوابًـــا ســـيئًا يعقـــب الصـــديق احتشـــاما
فانصـــــرفنا نوجـــــه العـــــذر إلا أن فـــي مضـــمر القلـــوب اضـــطراما

ويقول لعلي بن المنجِّم وقد حجبه غلامه[٢٥] :

لـيس يرضـي الحـر الكـريم ولـو أقـ ـــطعته الأرض أن يُـــذَلّ لعبـــد
فعليـــك الســـلام إلا علـــى الطـــر ق وحبـــي كمـــا علمـــت ووُدّي

ويرى سعيد بن حُمَيْد أن العتاب وإن كان وسيلة من وسائل الحفاظ على الصداقة، إلا أنه لا ينبغي التمادي والمبالغة فيه ، فينشغل المرء به في حين أن أيام الحياة قصيرة فيجب أن نتنعم فيها بقرب الأصدقاء لا أن نكدر صفوها بالهجر والاجتناب والعتاب.

---

(٢٤) رسائل الجاحظ (كتاب الحجاب) : ٥٦/٢ ، ووردت الأبيات في طراز المجالس للخفاجي : ٨٥.
(٢٥) رسائل الجاحظ : ٥٧/٢ وطراز المجالس : ٨٥.

يقول[٢٦] :

الـــــــدهر أقصـــــــر مـــــــدة ... مـــــن أن يقطـــــع بالعتـــــاب
أو أن نكـــــدر مـــــا صـــــفا ... منـــــه بهجـــــر واجتنـــــاب
فتـــــــنعّم الســـــــاعات إن ... ممرهـــــا مـــــر الســـــحاب

ويكتب إلى صديقه أبي العباس بن ثَوَابة – وكان أبو العباس قد عاتبه معاتبة فيها بعض الغلظة – متخذًا من المعاني السابقة سبيلاً ليستل سخيمة نفسه ، ويؤكد قيامه على مودته وصداقته ، داعيًا إلى تقليل العتاب وعدم الإصرار على الاجتناب ، فيقول[٢٧] :

أقلـــل عتابـــك فالبقـــاء قليـــل ... والـــدهر يعـــدل مـــرة ويميـــل
لـم أبـك مـن زمـن ذممـت صـروفه ... إلا بكيـــت عليـــه حـــين يـــزول
ولكـــل نائبـــة ألمـــت مـــدة ... ولكـــل حـــال أقبلـــت تحويـــل
والمنتمـــون إلـــى الإخـــاء جماعـــة ... إن حصـــلوا أفنـــاهم التحصـــيل
ولعـــل أحـــداث الليـــالي والـــردى ... يومًـــا ستصـــدع بيننـــا وتحـــول
فلـــئن ســـبقتُ لتبكـــين بحســـرة ... وليكثـــرن علـــي منـــك عويـــل
ولـــتفجعن بمخلـــص لـــك وامـــق ... حبـــل الوفـــاء بحبلـــه موصـــول
وليـــذهبن جمـــال كـــل مـــروءة ... وليعفـــون فناؤهـــا المـــأهول
ولـــئن ســـبقتَ ولا ســـبقتَ ليمضـــين ... مـــن لا يشـــاكله لـــدي عـــديل
وأراك تكلـــف بالعتـــاب وودنـــا ... بـــاق عليـــه مـــن الوفـــاء دليـــل

---

(٢٦) أشعاره : ق : ٥.

(٢٧) أشعاره ق : ٦٠ وراجع قصة الأبيات في الأغاني : ٦٩٤٧/٢٠.

وُدّ بـــدا لـــذوي الإخـــاء جميلـــه وبـــدت عليـــه بهجـــة وقبـــول
ولعـــل أيـــام الحيـــاة قصـــيرة فعـــلام يكثـــر عتبنـــا ويطـــول

وعادة ما يتلطف الكتاب في استرضاء أصحابهم عن هفواتهم طالبين المنَّ بالعفو، معترفين بالتقصير والذنب ، ومن ذلك قول سهل بن هارون[٢٨] :

إن تعـف عـن عبـدك المسـيء ففـي عفـوك مـأوى للفضـل والمِـنن
أتيـتُ مـا أسـتحق مـن خطـأٍ فجـد بمـا تسـتحق مـن حسـن

ويتلطف إبراهيم بن العباس في طلب العفو عن طريق الحجة العقلية ، فيقول[٢٩] :

فهبنـي مسـيئًا مثـل مـا قلـتَ ظالمًـا فعفـوًا جمـيلاً كـي يكـون لـك الفضـل
فـإن لـم أكـن بـالعفو منـك لسـوء مـا جنيـتُ بـه أهـلاً فأنـت لـه أهـل

وقد لا يجد الكاتب عذرًا يبديه لصاحبه ، فيكتب إليه طالبًا العفو معترفًا بأنه لا عذر له ، ومن ذلك قول الحسن بن وهب[٣٠] :

أبـا جعفـر مـا أحسـن العفـو كلـه ولاسـيما مـن قائـل : لـيس لـي عـذر

ومما تقدم يمكن القول بأن الكتاب قد اتخذوا من العتاب والاعتذار وسيلتين للحفاظ على عرى الوُدّ القديم ، والقيام بواجبات الصداقة الحقّة ، ويجدر بالإشارة أن شعر الكتاب

---

(٢٨) زهر الآداب : ٥٧٨/١ ووردت باختلاف في سرح العيون : ٢٤٧ . ونسبها صاحب إعتاب الكتاب / ١٦٤ لأبي الجهم أحمد بن يوسف الكاتب.

(٢٩) معجم الأدباء : ١٨٦/١. وفي الديوان ق : ٢٠٤ فأنت لها بدلاً من فأنت له.

(٣٠) العقد الفريد : ١٤٢/٢.

في العتاب والاعتذار يتشابه كثيرًا مع رسائلهم النثرية في هذين الغرضين[٣١]، ولعل ما لاحظناه من طرق التلطف والاحتجاج ما يؤكد ذلك.

(٣) التشوق والاستزارة

ذكرنا آنفًا أن مكانة الصديق عند الكتاب تضارع مكانة الحبيب ، ولذا يبدون التشوق لرؤيته والحزن لغيبته ، ويخاطبونه مخاطبة العاشق الدَّنِف ، والمحب الصَّب ، يقول الحسن بن وهب : « كاتب رئيسك بما يستحق ، ومن دونك بما يستوجب ، واكتب إلى صديقك كما تكتب إلى حبيبك »[٣٢] ، ولذا يخاطب صديقه ابن الزيات قائلاً[٣٣] :

إن عندي مودة لك حازت ... ما حوى عاشق لمعشوق

ويكتب ابن الزيات إليه متشوقًا لرؤيته ، ذاكرًا أن الحياة لا يصفو عيشها إلا باجتماعها ، وأن اشتياقه لرؤيته يفوق ما يتمناه العاشق الصَّب الذي أنهكته الصبابة من العافية ، يقول[٣٤] :

لعمرك ما عيشة رغدة ... لدي إذا غبتَ بالراضية

وإني إلى وجهك المستنير ... فِي ظلمة الليلة الداجية

لأشوقُ من مدْنَف خائف ... لقاء الحِمام إلى العافية

---

(٣١) راجع عن النمط العام لرسائل الاعتذار والعتاب ، صبح الأعشى : ١٦٥/٩ وما بعدها ، ١٨٩/٩ وما بعدها.

(٣٢) أدب الكتاب : ٢٣٦.

(٣٣) الأغاني : ٩١٩٠/٢٧.

(٣٤) الصداقة والصديق : ١٨٥/ ١٨٦ ، ولم ترد بالديوان.

ويكتب الجاحظ إلى إبراهيم بن المدبر رسالة يصف فيها شوقه لرؤيته ، وغمه وحزنه لفراقه وغيبته ، ثم يذيلها بأبيات تترجم معاني الرسالة ويذكر أنها « تقصر عن صفة وجْدي ، وكنه ما يتضمنه قلبي » ، وهي :

بخذيّ من قطر الدموع ندوب ... وبالقلب مني مذ نأيتَ وجيب
ولي نَفَسٌ حتى الدجى يصدع الحشا ... ورجع حنين للفؤاد مذيب
ولي شاهد من ضر نفْسٍ وسقمه ... يُخبر عني أنني لكئيب
كأني لم أفجع بفرقة صاحب ... ولا غاب عن عيني سواك حبيب

ولنا يعلق أحد الجالسين عليها بقوله : هذه رقعة عاشق لا رقعة خادم[٣٥].

وقد تُفرق ظروف الحياة بين الكاتب وصديقه ، مما يدفعه إلى وصف حزنه لهذا الفراق ، وتصوير ما كانت عليه علاقتهما. ومن ذلك قول أبي الجهم أحمد بن يوسف[٣٦]:

أي الورى لم يبت على ضمد ... وأي عيش خلا من النكد
ومن فراق الأحياء فادحة ... يُغري فراق الأحياء بالسهد
يُمناي بانت ولست أول من ... كفكف دمعًا على يد بيد
يا صاحبًا كنت أستظل بركـ ... ـنيه وآوى منه إلى سند
يجري من القلب والجوانح والـ ... أحشاء مجرى روحي من الجسد
قد كنت أشكو إليك ما يُجهد النـ (م) ... ـفس ولم أشكه إلى أحد

(٣٥) معجم الأدباء : ٩٣/١٦ .

(٣٦) الورقة لابن الجراح ، وأبو الجهم هو أحمد بن يوسف الأنباري الكاتب. شاعر محسن ظريف ، أشعاره قصار ملاح ، وله من الشعر خمسون ورقة ، وكان من صنائع ابن الزيات ، راجع الورقة : ١٣١ – ١٣٣ ، وإعتاب الكتاب : ١٦٤/١٦٣ الفهرست : ٢٣٦.

وكنـــــت أرتـــــاح أن أراك وأعـــــ ـــــتدك دون العـــدى يـــد الأســـد
فســوف أدعــوك باســمك الحــق للنــ (م) ـــجدة دعـــوى عـــار مـــن الجلـــد
يــا رجــع طرفــي ويــا يمينــي فــي الــ (م) روع ويـــا مهجتـــي ويـــا كبـــدي
عســى الليــالي يُبْــدِلْنَ مــن نأْيــك الــ ـــقُرب ويعـــدينا علـــى البعـــد

إنه يذكر من المعاني النفسية ما يلمسه كل إنسان في حياته العادية ، إذ يكون الصديق – في العادة هو الشخص الذي يرتاح المرء إلى حديثه والشكوى إليه بما يجهد نفسه ، ويرى أنه عون له على الأيام ؛ ومن ثم ، فإنه يشعر بخسارة كبيرة لبعده وفقده.

ويصف أحمد بن يوسف الكاتب فراق صديقه في لغة أقرب ما تكون إلى اللغة التي يخاطب بها الحبيب ثم يدعوه لزيارته ليجددا سالف سرورهما. يقول[٣٧] :

تطـــاول باللقـــاء العهـــد منـــا وطـــول العهـــد يقـــرح فـــي القلـــوب
أراك إذا نأيـــتَ بعـــين قلبـــي كأنـــك نصـــبُ عينـــي مـــن قريـــب
فهـــل لـــك فـــي الـــرواح إلـــى حبيـــب يقـــر بعينـــه قـــربُ الحبيـــب

وقد يكون الكاتب في مجلس أنس وسرور ، فيرى أنه لا يتم سروره إلا بمشاركة إخوانه لـه ، فيكتب إليهم واصفًا هذا المجلس ، داعيًا إياهم لزيارته ومشاركته متعته وأنسه ، ومن ذلك ما كتبه إبراهيم بن المدبّر إلى أبي العُبَيْس بن حمدون المغنّي يصف شوقه لرؤيته ، ويستدعيه لزيارته ، وكانت عَرِيبُ قد اقترحت عليه حضوره[٣٨] :

---

(٣٧) الأوراق : ٢١٥ ووردت الأبيات باختلاف يسير في معجم الأدباء : ١٨٠/١٧٩/٥.

(٣٨) الأغاني : ٨٨٧٤/٨٨٧٣/٢٦. وقد دخل البيت الأول الخرم في أوله والخرم هو حذف أول الوتد المجموع من أول تفعيلة في البيت.

قـــل لابـــن حمـــدون ذاك الأريـــب وذاك الظريـــــف وذاك الحســـــيب
كتـــابي إليـــك بشـــكوى عَرِيـــب لوجـــد شـــديد وشـــوق عجيـــب
وشـــوقي إليـــك كشـــوق الغريـــب إلـــى أرضـــه بعـــد طـــول المغيـــب
ويـــــومي إن أنـــــت تممتـــــه بقربـــك ذو كـــل حســـن وطيـــب
حبـــاني الزمـــان كمـــا أشـــتهي بقـــرب الحبيـــب وبعـــد الرقيـــب
فمـــا زلـــت أشـــرب مـــن كفـــه وأســـقيه ســـقي اللطيـــف الأريـــب
ويشـــكو إلـــي وأشـــكو إليـــه بفعـــل عجيـــب وقـــول مريـــب
إلـــي أن بـــدا لـــي وجـــه الصـــباح كوجهـــك ذاك الحبيـــب القريـــب
فـــلا تخلنـــا يـــا نظـــام الســـرو ر منـــك فأنـــت شـــفاء الكئيـــب
وغـــنّ لنـــا هزجًـــا ممســـيا تخـــف لـــه حركـــات اللبيـــب
فإنـــك قـــد حـــزت حُســـن الغنـــاء وقـــد فـــزت منـــه بـــأوفى نصـــيب
وكـــن بـــأبي أنـــت رجـــع الجـــواب فـــداؤك أنفســـنا مـــن مجيـــب

ويكتب الحسن بن وهب إلى صديق له يدعوه ليتم سروره بلقائه ، فيقول[٣٩] :

بحســـــن هـــــذا الضّـــــباب وحرمـــــــــة الأصـــــــــحاب
وطيـــــب يـــــوم التلاقـــــي بطاعـــــــــة الأحبـــــــــاب
إلا أطعـــــــت مـــــــرادي فكنـــــت أنـــــت جـــــوابي

(٣٩) قطب السرور / ٦٠.

وقد تقف الظروف حائلاً دون لقاء الأصدقاء ، فيكتب أحدهما معتذرًا في عبارات تفيض رقة وعذوبة ، ومن ذلك ما كتب به الحسن بن وهب إلى ابن الزيات وقد حال المطرُ دون لقائهما [٤٠] :

يوضح العذر في تراخي اللقاء ... ما توالى من هذه الأنواء

فسلام الإله أهديه مني ... كل يوم لسيد الوزراء

لست أدري ماذا أذم وأشكو ... من سماء تعوقني عن سماء

غير أني أدعو لهاتيك بالثّكل وأدعو لهذه بالبقاء

وكتب محمد بن عبدالله بن أحمد بن يوسف إلى صديق له وقد حال المطر أيضًا دون لقائهما – راجيًا منه أن يصف له ما يُسر به من أحواله[٤١] :

لعمري لئن سرّ الحَيَا في مواطن ... لقد ساءني أن عاقني عن لقائكا

وقد كنت مشغوفًا بذاك أريده ... فحال قضاء الله من دون ذلكا

فصف لي فدتك النفس أمرًا يسرني ... وأحمد منه الله من حُسن حالكا

وحال أخينا أحسن الله صنعه ... وحال فتانا منعما في كتابكا

ومما لاشك فيه أن شعر التشوق والاستزارة الإخواني – كما اتضح من الأمثلة السابقة – يشي بمكانة الصداقة في نفوس الكتاب ، تلك المكانة التي انعكست في رقة ألفاظهم وعذوبة معانيهم ، حتى اقترب هذا النوع من الشعر من شعر التغزل بما فيه من

---

(٤٠) العقد الفريد : ١٩٤/٣. ووردت ببعض الاختلاف في المصدر نفسه : ٢٢٧/٤ ، والأغاني : ٩١٨٧/٢٧ ، وأحسن ما سمعت للثعالبي : ٤٥ ، وخاصة الخاص للثعالبي / ١٠٠ ، وشرح مقامات الحريري : ٢٧/٢.

(٤١) الأوراق : ٢٤٩.

وجد ولوعة وشوق ، برغم التشابه الواضح بين أسلوبه وبين أسلوب رسائل التشوق والاستزارة[٤٢] ، وهذا يشي بقدرة الكتاب على إثراء الشعر العربي بموضوعات نثرية وصبغها في الوقت نفسه بالصبغة الشعرية.

(٤) التهاني

وكما كانت المشاركة الوجدانية في المحن والأزمات إحدى السمات البارزة في تشكيل دستور الصداقة الحقّة عند الكتاب ، فإن للمشاركة الوجدانية في الفرح والسرور أثرها الواضح في توطيد أركان الصداقة أيضًا. وتتمثل أهم عناصر هذه المشاركة في التهاني ، إذ يمر بالإنسان كثير من المناسبات السارة التي يحتاج إلى من يشاركه السرور بها ، ولاشك أن التعبير بالتهنئة من أهم مظاهر هذه المشاركة.

وتتنوع المناسبات التي توجب التهاني ، ومن هذه المناسبات الإبلال من المرض، إذ يسارع الكاتب إلى التهنئة بالشفاء واصفًا حاله أثناء مرض صديقه ، متمنيًا لو أنه شاركه في حمل العلة عنه ، وإذا كان المكتوب إليه وزيرًا أو خليفة مدحه وأثنى عليه ، مبينًا حالة الأمة في مرضه ، وكيف تصدعت القلوب والتهبت الصدور حزنًا عليه ، ثم يعقب ذلك بيان فرح الأمة والخلافة بإبلاله ، موشيًا ذلك ببيان صفاته من الجود والشجاعة ورجاحة العقل وبلاغة القول وسداد الرأي. ومن ذلك قول إبراهيم بن المدبّر يهنئ المتوكل بإبلاله من مرض[٤٣] :

---

(٤٢) راجع عن النمط العام لرسائل التشوق والاستزارة ، صبح الأعشى : ١٤٢/٩ ، ١٥٠.

(٤٣) الأغاني : ٢٦/ ٨٨٦٣/ ٨٨٦٤

يـــــوم أتانـــــا بالســـــرور فالحمـــــد للـــــه الكبيـــــر
أخلصـــــت فيـــــه شـــــكره ووفيـــــت فيـــــه بالنـــــذور
لمـــــا اعتللـــــت تصـــــدعت شـــعب القلـــوب مـــن الصـــدور
مـــــن بـــــين ملتهـــــب الفـــــؤا د وبـــــين مكتئـــــب الضـــــمير
يـــــا عُـــــدتي للـــــدين والـــــدُّ (م) نيـــــا وللخطـــــب الخطيـــــر
كانـــــت جفـــــوني ثـــــرّة الـــــ آمـــــاق بالـــــدمع الغزيـــــر
لـــــو لـــــم أمـــــت جزعًـــــا لعمـــــ ـــــرك إننـــــي عـــــين الصـــــبور
يـــــومي هنالـــــك كالسنيـــــ ـــــن وســـــاعتي مثـــــل الشـــــهور
يـــــا جعفـــــر المتوكـــــل الـــــ عـــــالي علـــــى البـــــدر المنيـــــر
اليـــــوم عـــــاد الملـــــك غـــــض العـــــود ذا ورق نضـــــير
واليـــــوم أصـــــبحت الخـــــلا فـــــة وهـــــي أرســـــى مـــــن ثبيـــــر
قـــــد حالفتـــــك وعاقدتـــــ ـــــك علـــــى مطاولـــــة الـــــدهور
يـــــا رحمـــــة للعالميـــــ ـــــن ويـــــا ضـــــياء المســـــتنير
يـــــا حجـــــة الله التـــــي ظهـــــرت لـــــه بهـــــدى ونـــــور
لله أنـــــت فمـــــا نُشـــــا هـــــد منـــــك مـــــن كـــــرم وخيـــــر
حتـــــى نقـــــول ومـــــن بِقُـــــرْ بِـــــكَ مـــــن ولـــــي أو نصـــــير
البـــــدر ينطـــــق بيننـــــا أم جعفـــــر فـــــوق الســـــرير
فـــــإذا تـــــواترت العظـــــا ئـــــم كنـــــت منقطـــــع النظيـــــر
وإذا تعـــــذرت العطـــــا يـــــا كنـــــت فيـــــاض البحـــــور
تُمضـــــي الصـــــواب بـــــلا وزيـــــ ـــــر أو ظهيـــــر أو مُشـــــير

وتعد الأعياد من المناسبات التي توجب التهنئة ، ومن الأعياد التي نقلها العباسيون عن الفرس عيد النَيْروز وعيد المِهْرَجان [٤٤] ، فكانوا يحتفلون بهما ، ويهدون فيهما ، ويهنئون بحلولهما. وتتضمن التهنئة مدحًا وثناءً للمهنأ ، مع هدية يتخيرها المهنئ ، وكثيرًا ما تكون أبيات التهنئة ذيلاً لرسالة يكتبها الكاتب يرتجم فيها مضمون تلك الرسالة ، ومن ذلك ما كتب به الحسن بن وهب يهنئ المتوكل في يوم نيروز ، وكان قد كتب برقعة وشّاها بمدحه والدعاء له ، ثم كتب في آخرها الأبيات التالية[٤٥] :

فداكَ الزمانُ وأهلُ الزمان ... إمامَ الهدى بك مستبشرينا
ولازلتَ زينا لأعيادنا ... وللدِّين كهفًا وحصنًا حصينا
يَعز بدولتك الصالحون ... ويشقى بك الشّركُ والمشركونا
فيارب مشكلة أبرقت ... فجللتها السيف حقًا يقينا
بصدقِ عزيمةِ مستبْصِرٍ ... وضربٍ يَقُدّ الطُّلى والمتونا
وَسَمْتَ النصارى بشيطانها ... وذلَّلتَ منها الأغرَّ البطينا
وكم فِعْلَةٍ لك في المشركين ... أقرّت عيونًا وأبكت عيونا

وقال سعيد بن حُمَيْد في أعقاب رسالة بعث بها إلى أحد الأمراء تهنئة بعيد المِهْرَجان ، واصفًا مكانة ذلك العيد ، وفرحة الكون بقدومه ، مما يبعث على اللهو والتنغم فيه ، ذاكر أنه لم يجد هدية تكافئ قدره إلا الشكر والثناء[٤٦] :

---

(٤٤) راجع عن عيد النيروز وعيد المهرجان التيارات الأجنبية في الشعر العربي ، د. عثمان موافي : ٢٠٢ – ٢١٣. وراجع أيضًا مراجعه.

(٤٥) المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ : ٢٤٢ . والطلي : الأعناق.

(٤٦) أشعاره ق : ٥٤.

عــاد فــي المِهْرَجــان كأسًــا شــمولاً وأطعنـــــي ولا تطعـــــنَّ عَـــــذولا
فهــو يــوم قــد كــان آبــاؤك الغُــرّ (م) يحلونـــــــه محـــــــلاً جلـــــيلا
إن للصـــيف دولـــةً قـــد تقضّـــت وأراك الشـــــتاءُ وجهًـــــا جمـــــيلا
وتجلّــت لــك الريــاضُ عــن النَّــوْ ر فكانــت مــن كــل شــيء بــديلا
فتمتـــع بـــاللهو لا زلـــتَ جَـــذْلا ن وطـــرف الزمـــان عنـــك كلـــيلا
لــم أجــد لــي هديــة حــين حصلّــ ـــــتَ كثيـــرًا ملكتَـــه وقلـــيلا
يعـــدل الشّـــكرَ والثنـــاء وإن لـــم يـــكُ شـــكرٌ لمـــا أتيـــتَ عـــديلا
فجعلــتُ الــذي أُطيــقُ مــن الشّكْــ ــر علــى مــا عجــزتٌ عنــه بــديلا
يــا لهــا مــن هديــة تقنــع المُهْــ ـــدَى إليـــه ولا تُعنِّـــي الرّســـولا

ومن المناسبات التي توجب التهنئة أيضًا الزواج ، ومن ذلك قول إبراهيم بن العباس يهنئ الحسن بن سهل بتزويج ابنته للمأمون ذاكرًا فضله وفضل العروس ، داعيًا له بدوام النعم والسرور[٤٧] :

هَنَّئْــكَ أُكْرومــةٌ جُلّــتَ نِعمتَهــا أَنْمَــتْ وَلِيَّــكَ واجتثّــتْ أعاديكــا
مــا كــان يُحبــى بهــا إلا الإمــامُ ومــا كانــت إذا قُرِنــت بــالخلق تعــدوكا
تــالله لــو أُطْلقــتْ أَمّتْــكَ قاصــدة عــن بُعْــد مصــدرها حتــى توافيكــا
أوْ لــو تُبَــاعُ حَبَــاكَ الأوليــاءُ بهــا وردَّهــا كــلُّ مَــنْ أضــحى ينــاديكــا
مــا جُــدِّدت لــك مِــنْ نُعمــي وَإِنْ عَظُمَــتْ إلا يُصــغِّرها الفضــلُ الــذي فيكــا
لازلــتَ مســتحدثًا نُعْمــي تُسَــرُّ بِهَــا علـــى الزمـــان ولا زِلْنـــا نُهَنِّيكـــا

(٤٧) الديوان ق : ٢٨.

ومن موضوعات التهاني في شعر الكتاب التهنئة بالأولاد ، وفي هذا النوع يبين الكاتب فضل هذه النعمة وسروره بها ، داعيًا إلى شكر الله ليزداد عطاؤه ، ومن ذلك قول أبي علي البصير يهنئ صديقًا له بمولود رُزقه[٤٨] :

أتيتـــــك جَـــــذْلان مُسْتبشـــــرًا لبشـــــراك لمـــــا أتـــــاني الخبـــــرْ
أتـــاني البشـــيرُ بـــأنْ قـــد رُزِقـــتَ غلامًـــا فـــأبهجني مـــا ذَكَـــرْ
وأنـــــك والرشـــــد فيمـــــا فعلـــــتَ أســـميْتَهُ باســـم خيـــر البَشَـــرْ
وطهَّرْتَـــــه يـــــومَ أســـــبوعه ومِـنْ قَبْـلُ فـي الـذكر مـا قَـدْ طَهُـر
فعمَّـــــرك اللهُ حتَّـــــى تـــــرا هـ قـد قـارب الخطْـوَ منـه الكِبَـر
وحتـــى تـــرى حولـــه مِـــنْ بَنيـــه وإخوتـــــه وبنيـــــنهم زُمَـــــرْ
وحتـــى يـــروم الأمـــورَ الجســـام ويُرْجَـــي لنفـــعٍ ويُخْشـــى لضَـــر
وأوزعـــــك الله شـــــكر العطـــــاء فـــــإن المزيـــــد لعبـــــدٍ شَـــــكَر
وصـــلَّى علـــى الســـلف الصالحيـــ ـــن مـــنكم وبـــارك فـــيمن غَبَـــرْ

ومن ذلك أيضًا ما كتب به محمد بن عبدالله بن أحمد بن يوسف إلى صديق له يهنئه بمولود[٤٩] :

جُعلـــت فـــداءك مـــن ســـيد حقيـــقٍ بكـــل ثنـــاء جميـــل
حبـــــاك الإلـــــهُ بإحســـــانه بغـــيظ العـــدا وســـرور الخليـــل
بمولـــود يُمـــنٍ نمـــاه الإلـــه ســـعيدِ الجـــدود كـــريمِ القبيـــل

---

(٤٨) عيون الأخبار : ٣/٩٨.

(٤٩) الأوراق : ٢٤٧ / ٢٤٨ ، والهبرزي هو الأسد والمقدام الشجاع ، والعافي هو طالب الحاجة والمعروف .

نمـــــاه لأنبـــــل مـــــا يرتجـــــي مـــــن الهبـــــرزي الكـــــريم النبيـــــل
بصـــدق اللقـــاء وصـــدق الحـــديث وإكـــــــرام عـــــــافيكمُ والنزيـــــــل
فبـــــادر بشـــــكرك ربَّ الســـــماء يُـــزدْك بإعطـــاء فضـــلٍ جزيـــل

ومن موضوعات التهاني أيضًا ، التهنئة بولاية الأعمال ، وفيها يجعل المهنئ المهنأ جديرًا بهذا العمل ، ويذكر أن التهنئة الحقيقية يجب أن تكون للعمل الذي تولاه ، ومن ذلك قول إبراهيم بن العباس الصولي يهنئ الفضل بن سهل بولاية أعمال طُوس(٥٠):

لا أهنيـــــــــك بطـــــــــوس بـــــل أهنـــــي بـــــك طوســـــا
أصـــــــبحتْ بعـــــد خمـــــول بـــــك يـــــا فضـــــلُ عروســـــا

ومن طريف التهاني التهنئة على العزل من العمل ، وعادة ما يذكر الكاتب أن المعزول أكبر من العزل ، وأنه لم يقصر في عمله ، وإنما هو كالسيف جُرِّد يوم الوَغَى، فلما أنجزَ مهمته رُدَّ إلى غِمْدِهِ.

يقول سعيد بن حُمَيْد(٥١) :

لِيَهْنَـــكَ أن أصـــبحتَ مجتمـــع الحمـــد وراعـــي المعـــالي والمُحَـــامي عـــن المجـــدِ
وأنـــك صُـــنْتَ الأمـــرَ فيمـــا وَلِيتَـــهُ ففرَّقـــت مـــا بـــين الغِوايـــة والرُّشْـــدِ
فـــلا يحســـب البـــاغون عزلَـــك مَغْنمـــا فَـــإنَّ إلـــى الإصـــدارِ عَاقبـــةَ الـــوِرْدِ
ومـــا كنـــتَ إلا السَّـــيْفَ جُـــرِّدَ للـــوَغَى فأحْمَـــدَ فيهـــا ثُـــمَّ رُدَّ إلـــى الغِمْـــدِ

(٥٠) الديوان ق : ٢٣. وورد البيتان ببعض الاختلاف في المنتحل للثعالبي : ٤٢/٤١.
(٥١) أشعاره : ق : ٤ من المنسوب إليه.

ومن ذلك أيضًا ما كتب به إبراهيم بن عيسى الكاتب إلى إبراهيم بن المدبِّر يهنئه بالعزل عن عمل انتزعه منه أبو الصقر إسماعيل بن بُلْبل[٥٢] :

لِـــيَهْنَ أبـــا إســـحاق أســـبابَ نعمـــة مُجَـــدَّدة بـــالعَزْل والعـــزل أنْبَـــلُ

شـــهدتُ لقـــد مَنُّـــوا عليـــك وأحســـنوا لأنَّـــك فـــي ذا العـــزلِ أعلـــى وأفضـــلُ

ومما تقدم يمكن القول بأن شعر التهاني يشكل إضافة جديدة للشعر العربي عن طريق إثرائه بموضوعات النثر الفني ، إذ يتشابه النمط العام لهذا الشعر والنمط العام للرسائل الإخوانية في الغرض نفسه تشابهًا كبيرًا[٥٣].

(٥) التهـــادي

وكما كانت التهاني سببًا من أسباب توطيد أركان الصداقة ، فإن التهادي دليل ناطق على قوة العلاقات التي تجمع بين الأصدقاء ، ولقد استطاع الكتاب بهذا الشعر أن يثروا الشعر العربي بمضامين رسائلهم في هذا الغرض[٥٤] ، فكان هذا الشعر الإخواني الذي يشي بصلته الوثيقة بدائرة النثر الفني ، بما تهتم به من مراعاة قدر المكتوب إليه ، والتلطف في الإهداء والاستهداء ، والعناية بالرقة والسهولة والوضوح والعذوبة.

---

(٥٢) الوافي بالوفيات : ٧٧/٦. وورد البيتان في نهاية الأرب باختلاف يسير : ١٣٥/٥. وإبراهيم بن عيسى هو أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى الكاتب المدائني الزمن من أهل ديرقني. شاعر أديب وله من الشعر خمسون ورقة. راجع الوافي بالوفيات : ٧٧/٦ ، الفهرست : ٢٣٧.

(٥٣) راجع عن النمط العام لرسائل التهاني في موضوعات التهاني السابقة صبح الأعشى : ٥/٩ ، ٦، ٢٢، ٤٧، ٥٤، ٥٦، ٦٣، ٧٧.

(٥٤) راجع عن النمط العام لرسائل التهادي صبح الأعشى : ١٠٠/٩.

وعادة ما يصف الكاتب عجزه عن الوفاء بقدر المُهدَى إليه ، معترفًا بالتقصير عن إهداء ما يليق به ، ذاكرًا أن العادة قد جرت بالإهداء ، ولو أنه رَكَنَ إلى هذه الأعذار لما وجد ما يهديه. ومن ذلك قول أحمد بن يوسف[٥٥] :

على العبد حق فهو لاشك فاعله ... وإن عَظُم المولى وجلت فضائله
ألم ترنا نُهْدي إلى الله مَالَه ... وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله
ولو كان يُهدي للمليك لقدره ... لقصَّر فضلُ المال عنه وباذله
ولكننا نهدي إلى مَنْ نُعِزّهُ ... وإنْ لم يكن في وُسْعِنَا ما يُعادله

ويرى الجاحظ أنه لو لم يهد شيئًا إلا ما يناسب قدر المهدى إليه لأهدى سِدْرَةَ المُنْتَهَى. يقول[٥٦] :

لو كنتُ لا أُهْدي إلى أن أرى ... شيئًا على قدركَ أَوْ قدري
لكنتُ أُهدي سِدْرَةَ المُنْتَهَى ... تَرْفُلُ في أثوابها الخضر

ولما كان قدر المُهدَى إليه يَجِلُّ عن كل هدية مادية ؛ فإن الكتاب يجعلون من الاعتراف بالتقصير عن الإهداء ، ومن الثناء والشكر هدية تفي بأعذارهم وتقوم مقام الهدية المادية ، ومن ذلك قول أحمد بن يوسف[٥٧] :

---

(٥٥) التحف والهدايا : ٤٢/٤١. ووردت الأبيات ببعض الاختلاف في كثير من المصادر نذكر منها الأوراق: ٢١٢، ديوان المعاني : ٩٥/١ ، تهذيب تاريخ دمشق: ١٢٤/٢ ، معجم الأدباء : ١٧٢/٥ ، الوافي بالوفيات: ٢٨١/٢٨٠/٨ ، شرح المضنون به على غير أهله : ٣٠٩/٣٠٨ ، وورد البيتان الأول والثاني باختلاف أيضًا في المنتحل للثعالبي : ٢٨ وفي نثر النظم وحل العقد للثعالبي : ٩٨ ، وفي زهر الآداب : ١٤٥/١ ، وفي الفخري في الآداب السلطانية : ٢٠١.

(٥٦) شرح المضنون به على غير أهله : ٣٢٠/٣١٩ ، ووردا باختلاف يسير في المنتحل للثعالبي / ٢٩ منسوبة لحُميد بن سعيد . وقد يكون هو سعيد بن حميد.

(٥٧) أحسن ما سمعت للثعالبي : ١٨١ ونسبت في العقد الفريد : ٢٨٦/٦ ، ٢٨٧ لأحمد بن أبي طاهر.

مـــن ســـنَّة الأمـــلاك فيمـــا مضـــى مـــن ســـالف الـــدَّهر وأحوالـــه
هديـــــة العبـــــد إلـــــى ربِّـــــه فـــــي جِـــــدَّةِ الـــــدَّهر وإقبالـــــه
فقلـــتُ مـــا أُهـــدي إلـــى ســـيِّدٍ حـــالي إذا فكـــرتُ مـــن حالـــه
إن أُهـــدِ نفســـي فهـــي فـــي مُلْكِـــه أوْ أُهـــدِ مـــالي فهْـــوَ مـــن مالـــه
فلـــيس إلا الحمـــدُ والشـــكرُ والـــ ـــمدحُ الـــذي يبقـــى لأمثالـــه

ويكتب سعيد بن حميد رسالة إلى بعض أهل السلطان في يوم النيروز ، ويذيلها بأبيات يجعل فيها الاعتراف بالتقصير عن الهدية هو الهدية ، يقول(٥٨) :

إن أُهْـــدِ نفســـي فهـــو مالكهـــا ولـــه أَصـــونُ كـــرائم الـــذُّخْرِ
أوْ أُهْـــدِ مـــالاً فهـــو وَاهِبُـــهُ وأنـــا الحقيـــقُ عليـــه بالشـــكر
أَوْ أُهْـــدِ شـــكري فهـــو مُـــرْتَهِنٌ بجميـــل فعلـــك آخـــرَ الـــدَّهر
والشـــمسُ تســـتغني إذا طلعـــتْ أن تستضـــيءَ بِسُـــنَّةِ البَـــدْرِ

ويجعل أحمد بن أبي طاهر هديته من بديع شعره ؛ لأنه يعجز عن مجاراة الناس فيما يغربون فيه من الهدايا. يقول(٥٩) :

مـــا تَـــرى فـــي هديـــةٍ مـــن فقيـــر حِيـــلَ بينـــه وبـــين اليَســـار
يُغـربُ النَّـاسُ فـي الهـدايا إلـى النَّـا س ويُـْدي غرائـــبَ الأشـــعار
محكمـــاتٍ كأنهـــا قِطَـــعُ الـــرَّوْ ضِ تحلَّـــتْ أنـــوارُه بالبَهـــار

(٥٨) أشعاره ق : ٢٩.
(٥٩) العقد الفريد : ٦/٢٨٦.

ويكتب محمد بن عبدالله بن أحمد بن يوسف إلى صديق له افتصد ، فيهنئه بسلامته وشفائه ، ذاكرًا أنه لا يستطيع أن يجاري أهل الثراء في هداياهم ، فدراهمه ليست جمَّة وافية ، ولذا ، فإن هديته ستكون مِدْحَةً باقية. يقول[٦٠] :

سبقتَ إلى فَصْدَةٍ شافية ... فأعقبَ في سبقك العافيه
وبادرَ برَّك أهلُ الثَّراء ... فجاءتْ هداياهمُ غاديه
وراحتْ لنا مدحةٌ لم تزل ... بمثلك أمثالُها عاليه
جرى الدمُ مِنْ راحةٍ لم تزل ... بأنعمها سحَّة جاريه
وهذي هديةُ مَنْ لم تكن ... دراهمه جمَّةً وافيه

ومن طريف مكاتبات الإهداء ، ما كتب به أبو علي البصير إلى الفتح بن خاقان في يوم المِهْرَجان ، وقد قصَّرت يدُه عن الهدية ، فاعتذر لذلك بالفقر مقتصرًا على الشكر. يقول[٦١] :

إني جعلت هديتي ... في المِهْرَجان إليك شكري
لما تعذَّر واجب ... فسح التعذُّر فيه عُذري
فإذا أَجَزْتَ على اسم مَنْ ... وافتْ هديته ببِرِّ
فَأَدِرْ على اسمي دارةً ... واكتب عليه طليحُ فَقْرِ

فضحك الفتح وقال : وقعوا على اسمه مائتي دينار وخلعة.

---

(٦٠) الأوراق : ٢٤٧.

(٦١) التحف والهدايا / ١٥٥ ووردت الأبيات باختلاف يسير في محاضرات الأدباء : ٤٢٣/٢ منسوبة لأبي العباس أحمد بن ثوابة الكاتب ، وطليح فقر أي الذي أجهده الفقر وأعياه .

أما إذا أَهدى الكاتب ، فعادة ما يصف هديته ، دون تفخيم ومَنّ ، وقد يُوشي ذلك بالثناء والمدح للمُهدَى إليه. ومن ذلك قول عمرو بن مسعدة ، وقد أهدى إلى المأمون فرسًا ، فيصف الفرس موازنًا بين فضل الخليفة على سائر الأنام ، وفضل الفرس على سائر الجياد[٦٢] :

يـــــــا إمامًـــــــا لا يُدانيـــــــه إذا عُـــــــدَّ إمـــــــام

فَضَـــــلَ النَّـــاسَ كمـــا يَفْـــ ـــــضُلُ نقصـــــانًا تمـــــام

قـــــد بعثنـــــا بجـــــوادٍ متلُـــــه لـــــيس يـــــرام

فـــــرسٌ يُزْهـــــي بـــــه للـــــ ـــــحسن سَـــــرْجٌ ولِجـــــام

دونَـــــه الخيـــــلُ كمـــــا دو نَـــــك فـــــي الفَضْـــــل الأنـــــام

وجهُـــــهُ صـــــبحٌ ولكـــــن ســـــائر الجســـــم ظـــــلام

والـــــذي يصـــــلح للمـــــوْ لَـــــى علـــــى العبـــــدِ حـــــرام

ويهدي سعيد بن حميد إلى أحمد بن أبي طاهر قارورة ماء ورد فيكتب معها أبياتًا يثني فيها عليه. ويصف جمالها وطيب رائحتها ، يقول[٦٣] :

وزائـــــرةٍ حُوريّـــــةٍ فارســـــية كَنَشْـرِ حبيـب حـاد يومًـا عـن الصّـد

تـــردّ ربيعًـــا فـــي مصـــيفٍ بنفحـــةٍ إذا فقـــدتْ وردًا تتـــوب عـــن الـــوَرْد

حكـــى نشـــرُها منـــه خلائـــقَ نشـــره كنشـر نسـيم الـرّوض فـي جنـةِ الخُلـد

وشـــبهتُها فـــي صـــفوها بصـــفائه لإخوانـه فـي القـرب منـه وفـي البعـد

وأهـــدت لنـــا منـــه النســـيمَ نســـيمةٌ وإن كـان إن حالـتْ يـدوم علـى العهـد

---

(٦٢) معجم الشعراء : ٣٣ ومعجم الأدباء : ١٣٠/١٦.

(٦٣) أشعاره ق : ١٦.

ومن الهدايا التي تُتَداول في بيئة الكتاب – «الكتب» ، وما يصور ذلك أن أحمد بن إسماعيل نطَّاحة الكاتب استُهْدي دفترًا فيه حدودُ الفرَّاء ، فأهداه إلى مُسْتهديه ، وكتب على ظهره أبياتًا يصف نظم سطوره ، ودقة تأليفه ، وجمال نقطه ، وتشكيله ، حتى غدا وكأنه الروض المزهر ، خطوطه بستان وشكله ثمار ، يقول(٦٤) :

خـــذه فقـــد ســـوّغتُ فيـــه مشـــبهًا بـــالروض أو بـــالبُرْد فـــي تَفْويفِـــه
نُظمـتْ كمـا نظـم السـحاب سـطورَه وتـــأنَّق الفـــرَّاء فـــي تأليفـــه
وشـــكلتُه ونقطتُـــه فأمنـــتُ مِـــنْ تصـــحيفه ونجـــوْتُ مـــن تحريفـــه
بســـتانُ خـــطٍّ غيـــرَ أن ثمـــارَه لاتُجْتنـــى إلا بِشَـــكْلِ حروفـــه

ومن طريف ما يُهدي – الغلمان ، ومن ذلك أن عيسى بن فرخانشاه الكاتب أهدى إلى إبراهيم بن العباس الصولي غلامًا كاتبًا ، وكتب معه أبياتًا يصف فيها جمال شكله ، وحسن خطه ، وسرعة فهمه ، وتبريزه في صنعة الكتابة ، وإلمامه بشتى ألوان الثقافة ، يقول(٦٥) :

اقبـــــلْ هديـــــةَ شـــــاكرٍ تُجزيـــــه بـــــالنزر الجلـــــيلا
بـــــدرًا يضـــــيء إذا نظـــــر تَ إليـــــه لـــــم يـــــألف أُفـــــولا

---

(٦٤) أدب الكتاب : ٤٩ ، ومعجم الأدباء : ٢٣٠/٢ ، والوافي بالوفيات ٣٤٩/٦ ، ووردت باختلاف يسير في التحف والهدايا : ٣٢.

(٦٥) أدب الكتاب : ٤٧/٤٦ ، ووردت الأبيات السبعة الأولى ثم البيتان الثاني عشر والثالث عشر بمعجم الشعراء: ١٠٠ وفيها بعض الاختلاف وبها بيت زائد بعد البيت السادس من الرواية المذكورة وهو :

فتضـــاحكت ضـــحك الخليـــ ـــلة حـــين أبصـــرت الخلـــيلا

إنِّـــي بعثـــتُ بـــهِ وكنـــ ـــتَ بحُســـن موقعـــه كفـــيلا
لمـــا رأيـــتُ لخطِّـــه حُســـنًا يصـــيد بـــه العقـــولا
كَمُنَمْـــنَمِ المَوْشِـــيّ قـــد ســـحب القيـــان بـــه الـــذيولا
أو كالرِّيـــاض بكـــى الحَيَـــا فيهـــا فأوْسَـــعها هُمـــولا
وتـــراه للمعنـــى اللطيـــ ـــف إذا أشـــرت بـــه قَبـــولا
لا مســـتعيدًا منـــك إذ تُملـــي عليـــه ولا ملـــولا
عـــرف المبـــادئ والوصـــو ل مـــن الحكايـــة والفصـــولا
وصـــنوف ترتيـــب الـــدعا ء وأن يقصِّـــر أو يطـــيلا
والهمـــز والممـــدود والـــ ـــمقصور والمثـــل المَقُـــولا
والفعـــل والأســـماء والـــ مصـــروف منهـــا والثقـــيلا
فاســـتكفه واضـــمر لـــه أن لا تُريـــد بـــه البـــديلا
يحمـــل بفضـــل لســـانه وبيانـــه عنـــك الثقـــيلا

وكما يُهدي الكاتب فإنه يستهدي أيضًا ، وهو في صنيعه هذا يتلطف في الطلب بكثير من الرقة والظرف ، وعادة ما يكتب المُستهدَى منه ردًا يرفقه مع الهدية ، ومن ذلك ما كتب به راشد بن إسحاق الكاتب إلى محمد بن عبدالملك الزيات بعد قدوم محمد من الحج ، يذكره بمودته القديمة ، ويستهديه تمرًا وثيابًا ومساويك ونعلا. يقول[٦٦] :

لا تـــنس عهـــدي ولا مودتيـــه واشـــتقْ إلـــي طلعتـــي ورؤيَتيـــه

(٦٦) الأغاني ٩١٧٩/٢٧. وورد ببعض الاختلاف في طبقات ابن المعتز : ٣٨٩ ، وورد البيتان الأول والرابع في معجم الأدباء : ١٢٢/١١/ ١٢٣ والمقل حمل الدوم. والقسب : التمر اليابس. العصب : ضرب من البرود.

إن غبتَ عنَّا لم يغبْ كثرة الذكـ ـــر فلا تُغفلن هديتيه
التمر والمقل والمساويك والقَسْـ ـب وخير النّعال حسنَ شِيَه
فإن تجاوزتَ ما أقول إلى الـ قَصْبِ فذاك المأمول منك لِيه

فأجابه ابن الزيات من البحر نفسه والقافية نفسها ، ذاكر أنه لم ينس مودته ولا عهده ولا هديته ، ثم يصف له كيف أنه ظل يدعو الله له ، حتى ظن أنه قد أجاب دعوته ، ثم توجه إلى السوق فنشر عشرين صاحبًا معه ليبحثوا له عن نعل فخم ، وعندما أجمعوا على واحدة طالبه الذي اختارها بالبشارة ، ثم تخير هو بنفسه وبفضل خبرته برودًا يمانية موشاة وظل يساوم البائع حتى ابتاعها منه.

يقول[٦٧] :

إنَّك مني بحيث يطَّردُ النّـ (م) ـاظر من تحت ماء دمعتيه
ولا من زادني تـ ـودده على صحابي بفضل غيبتيه
ما أحسن التركَ والخلاف لما تُريد مني وما تقول ليه
يا بأبي أنت ما نسيتُك في يوم دُعائي ولا هديتيه
ناجيت بالذكر والدعاء لك الـ ـله لدى البيت رافعًا يديه
حتى إذا ما ظننتُ بالملك الـ ـقادر أن قد أجاب دعوتيه
قمت إلى موضع النعال وقد أقمت عشرين صاحبًا معيه

(٦٧) الأغاني : ٩١٨٠/٢٧ ووردت الأبيات ببعض الاختلاف في معجم الأدباء : ١١/ ١٢٣/ ١٢٤. كما وردت في ديوان ابن الزيات ص ٩٧/٩٦ بزيادة بيت بعد البيت الثاني وبيت آخر بعد البيت الأخير ، واختلاف في رواية الأبيات الثاني والثالث والرابع والتاسع والحادي عشر من رواية الأغاني.

وقلـــت لـــي صـــاحب أريـــد لـــه نعـــلاً ولـــو مـــن جلـــود راحتيـــه
فـــانقطع القـــول عنـــد واحـــدة قـــال الـــذي اختـــار يـــا بشـــارتيه
فقلـــت عنـــدي لـــك البشـــارة والشـــ (م) ـكـــر وقَـــلَّا فـــي جنـــب حاجتيـــه
ثـــم تخيّـــرت بعـــد ذاك مـــن الـــ ـــعَصْب اليمـــاني بفضـــل خبرتيـــه
مَوْشِـــــيّة لـــــم أزل ببائعهـــــا أُرْغِـــبُ حتـــى زهـــا علـــيّ بِيَـــه
يرفـــــع فـــــي سَـــــوْمة وأُرْغِبـــــه حتـــــى التقـــــى زهـــــدُه ورغبتيـــــه
وقـــد أتـــاك الـــذي أمـــرت بـــه فاعـــذِر بكُثُـــر الإنعـــام قِلَّتيـــه

وكتب أبو علي البصير إلى أحمد بن أبي طاهر يستهديه بخورًا ، وكان أحمد قد أهدى منه إلى بعض إخوانه[٦٨] :

يـــا شـــقيقي ويـــا خليلـــي إبـــاء المُرجَّـــى لكـــل خيـــر ومَيْـــر
أنـــت مـــن أطيـــب الأنـــام بخُـــورًا غيـــر أنـــي شـــممته عنـــد غيـــري
وهـــو جـــمٌّ لـــديك فابعـــث بـــدُرْجٍ منـــه إن لـــم أكـــن تعـــدّيْت طَـــوْري

فكتب إليه أحمد بن أبي طاهر من البحر نفسه والقافية نفسها[٦٩] :

قـــد بعثنـــا إليـــك منـــه بـــدُرْج وأزرنـــاك منـــه أطيـــب زور
بـــين نَـــدٍّ وبـــين عـــود مُطـــرًّا مـــا لـــه مشـــبَه بنَجْـــدٍ وغَـــوْر
أنـــت منـــه أزكـــى وأطيـــب عَرْفًـــا وهـــو أزكـــى مـــن كـــل طِيـــبٍ ونَـــوْر
مـــا تعـــديتَ فيـــه طـــوْرَك عنْـــدي فتبخَّـــر منـــه بـــأيمن طيْـــر

(٦٨) ديوان المعاني : ٢/٢٥٢.
(٦٩) المصدر نفسه : ٢/ ٢٥٢/ ٢٥٣.

وعادة ما يصبغ أبو علي البصير أبيات الاستهداء برقته وظرفه وحسن تلطفه وحيلته ، ومن ذلك أن بعض إخوانه أهدى إليه مرفقة قرمز من مرفقتين أهديتا إليه. فكتب أبو علي يستهديه الأخرى ، متخذًا من ظرفه وحسن حيلته سبيلاً إلى ذلك. يقول[٧٠]:

مِرفقـــــةٌ أُعطيتُهـــــا فـــــردةً ... رمـــتُ لهـــا أختًـــا فلـــم يتفـــق
يقـــول مـــن أبصـــرها عنـــدنا ... موضـــوعة : مـــا هـــي إلا سَـــرِق
قالـــت – وقـــد صـــدرتُ بيتـــي بهـــا ... مقـــال موتـــور حفـــيظ حَنِـــق
واســـتنكرت مـــا هـــو مســـتنكر ... مـــن ضـــيْعة القُرمـــز بـــين الخِـــرَق
وذكـــرتْ أختـــا لهـــا عنـــدكم ... كانـــت وإياهـــا معًـــا فـــى نسَـــقَ
تعسًـــا لمِـــنْ فـــرق مـــا بيننـــا ... ولـــم يكـــن فـــي الحـــقِّ أن نفتـــرق

ومن الأشياء التي تُستهدى في بيئة الكتاب – المداد .

ومن ذلك ما كتب به جعفر بن حدار الكاتب إلى أحد أصدقائه يستهديه مدادًا موشيًا أبياته بالثناء والمدح والتلطف في الطلب ، يقول[٧١] :

يـــا أخـــي للـــوِدَاد لا للمِـــدادِ ... وصـــديقي مـــن بـــين هـــذا العِبـــاد
والـــذي فيـــه ألـــفُ مجـــدٍ طَريـــفٍ ... قـــد أُمـــدَّتْ بـــألف مجـــد تِـــلاد
أنـــا أشـــكو إليـــك حـــال دواتـــي ... أصـــبحت تقْتَضِـــي قمـــيصَ حِـــداد

(٧٠) التحف والهدايا : ٩٣.

(٧١) صبح الأعشى : ٤٦٣/٢.

الخاتمة

ومما تقدم يتضح أن الكتاب قد أثروا الشعر العربي عن طريق نقل بعض الموضوعات النثرية إليه ، وتتمثل أهم هذه الموضوعات في شعر الصداقة والصديق ، فقد تناولوا ماهية الصداقة الحقة ، وسماتها ، وما يدور بين الأصدقاء من علاقات اجتماعية تتمثل في العتاب والاعتذار والتشوق والاستزارة والتهاني والتهادي.

وتعد هذه الموضوعات انعكاسًا طبيعيًا لبيئتهم الكتابية ، ولمكانتهم الاجتماعية ولتجاربهم الشخصية ، فلقد حافظوا في أغلب مضامين أشعارهم الإخوانية على ما عهدوه في مضامين رسائلهم الإخوانية التي تتناول الأغراض نفسها ، مع العناية بالسهولة والوضوح والرقة والعذوبة ، وحسن التلطف ، ومراعاة قدر المكتوب إليه ، كما أن هذا الشعر يرسم صورة صادقة لما يدور في بيئتهم المترفة ، وما تهتم به من المجاملات الاجتماعية والمشاركة الوجدانية ، بالإضافة إلى أنه تعبير واضح يعكس تجاربهم الشخصية في حرصهم على توطيد أركان الصداقة ، والمحافظة على الصديق.

المصادر والمراجع

١) أحسن ما سمعت لأبي منصور الثعالبي : نشر محمد صادق عنبر ، ط١ ، مطبعة الجمهور بالقاهرة ١٣٢٤هـ.

٢) أدب الكتاب : لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي ت ٣٣٥هـ. نشر محمد بهجت الأثري ، المطبعة السلفية ، ١٣٤١هـ.

٣) إعتاب الكتاب : لأبي عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار ، تحقيق : د. صالح الأشتر. ط أولى. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق : ١٩٦١م.

٤) الأعلام : لخير الدين الزركلي ، الطبعة الثانية ، مطبعة كوستاتسوماس ، ١٩٥٤ – ١٩٥٩.

٥) الأغاني : لأبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين بن محمد القرشي ، ت ٣٥٦هـ ، تحقيق إبراهيم الإبياري – دار الشعب ، ١٩٦٩م.

٦) الأوراق (قسم أخبار الشعراء المحدثين) لأبي بكر الصولي ، عني بنشره ج. هيورث. دن دار الميسرة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م.

٧) بهجة المجالس وأنس المُجالس وشحذ الذاهن والهاجس لأبي محمد يوسف ابن عبدالله بن محمد بن عبدالبر ت ٤٦٣هـ ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القسم الأول : ١٩٦٧م ، والقسم الثاني : ١٩٦٩م.

٨) التحف والهدايا : لأبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين ، تحقيق د. سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٦م.

٩) تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر المتوفى ٥٧١هـ ، هذَّبه عبدالقادر بدران ، نشر دار المسيرة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م.

١٠) التيارات الأجنبية في الشعر العربي منذ العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، د. عثمان موافي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ١٩٧٣م.
١١) خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي تصحيح محمود السمكري ، الطبعة الأولى ، ١٩٠٨م.
١٢) ديوان إبراهيم بن العباس الصولي : ضمن مجموعة الطرائف الأدبية ، القسم الثاني ، تحقيق عبدالعزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧م.
١٣) ديوان خالد الكاتب : تحقيق محمد لقمان الأعظمي ، رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة القاهرة ، تحت رقم ٥١٦.
١٤) ديوان محمد بن عبدالملك الزيات : تحقيق د. جميل سعيد ، مطبعة نهضة مصر بالفجالة ، ١٩٤٩م.
١٥) ديوان المعاني : لأبي هلال العسكري ، مكتبة المقدسي ، ١٣٥٢هـ.
١٦) رسائل الجاحظ : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ، بالقاهرة ، ١٩٦٤ – ١٩٧٩م.
١٧) رسائل سعيد بن حميد وأشعاره : جمع يونس أحمد السامرائي ، مطبعة الإرشاد، بغداد ، ١٩٧١م.
١٨) زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، الطبعة الثانية ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٧٠م.
١٩) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لجمال الدين بن نباتة المصري ت ٧٦٨هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٤م

٢٠) شرح المضنون به على غير أهله : للشيخ عبدالله بن عبدالكافي ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة بمصر ، سنة ١٩١٣م.
٢١) شرح مقامات الحريري : لأبي العباس أحمد بن عبدالمؤمن الشريشي ت ٦١٩هـ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٩م.
٢٢) صبح الأعشى : لأبي العباس أحمد القلقشندي ت ٨٢١هـ ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩١٣م – ١٩١٦م.
٢٣) الصداقة والصديق : لأبي حيان التوحيدي ، شرح : علي متولي صلاح ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٧٢م.
٢٤) طبقات الشعراء : لعبدالله بن المعتز ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، ط٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨م.
٢٥) طراز المجالس : لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي ، المطبعة الوهبية ، ١٢٨٤هـ.
٢٦) العقد الفريد : لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي ت ٣٢٧هـ ، تحقيق أحمد أمين وآخرين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٩ – ١٩٦٥م.
٢٧) عيون الأخبار لابن قتيبة ت ٢٧٦هـ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٥ – ١٩٣٠م.
٢٨) غرر الخصائص الواضحة ، وغرر النقائص الفاضحة : لأبي إسحاق برهان الدين إبراهيم بن يحيى بن علي الكتبي المعروف بالوطواط ، المطبعة المصرية ببولاق ، ١٢٨٤هـ.

٢٩) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية : لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ، راجعه محمد عوض إبراهيم وعلي الجارم ، ط٢ ، مطبعة المعارف بمصر ، ١٩٣٨م.
٣٠) الفرج بعد الشدة : لأبي علي الحسن بن أبي القاسم التنوخي ت ٣٨٤هـ ، ط١ ، مكتبة الخانجي بمصر ، والمثنى ببغداد ، ١٩٥٥م.
٣١) الفهرست : لمحمد بن إسحق النديم ت ٣٨٥هـ ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٧٨م.
٣٢) فوات الوفيات : لمحمد بن شاكر بن أحمد الكتبي ت ٧٦٤هـ ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١م.
٣٣) قطب السرور في أوصاف الخمور : لأبي إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق النديم ت ٤١٧هـ تقريبا ، تحقيق : أحمد الجندي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٦٩م.
٣٤) المحاسن والأضداد : المنسوب لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تصحيح محمد أمين الخانجي ، ط أولى ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٣٢٤هـ.
٣٥) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء : لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني ، منشورات ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦١م.
٣٦) معجم الأدباء : لياقوت الحموي ت ٦٢٦هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ب.ت.
٣٧) معجم الشعراء : لأبي عبدالله محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، ت ٣٨٤هـ ، تحقيق : عبدالستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٦٠م.

٣٨) المنتحل : لأبي منصور الثعالبي ، نشر أحمد أبو علي ، المطبعة التجارية بالإسكندرية ، ١٩٠١م.
٣٩) نثر النظم وحل العقد أو رسائل الثعالبي : لأبي منصور الثعالبي ، تقديم علي الخاقاني ، نشر دار البيان ببغداد ، ودار صعب ببيروت ، ١٩٧٢م.
٤٠) نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري ، ت ٧٣٣هـ ، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٩٢٥ – ١٩٣١م.
٤١) الورقة : لأبي عبدالله محمد بن داود بن الجراح ، تحقيق: د. عبدالوهاب عزام وعبدالستار أحمد فراج ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥١م.
٤٢) الوافي بالوفيات : لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ت ٧٦٤هـ ، دار النشر فرانزشتا ، يثر بفيسبادن ، ١٩٦٢ – ١٩٧٤م.